

التطور والتقليد

في الأريين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عاملان خالداً يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فزد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حي ؛ وقد كان لكل من الأدبين العربي والإنجليزي نصيب من كليهما ، غير أننا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كان أوفر حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الإنجليزي أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع

تطورت لغة الأدب الإنجليزي وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشد اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصة الطويلة والقصة

وتتابعت مذاهبه : فخلت المدرسة الرومانسية التي ازدهرت في عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أبلغ ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياء الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مداداً نظمها وثرها ؛ وتلها المدرسة الدينية التي أطلعت ملتون وبنيان اللذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتابتهما ؛ ثم كانت المدرسة الكلاسيكية في القرن الثامن عشر فانتن زعماءها في الشعر أمثال درايدن ويوب ، وفي النثر أمثال أديسون وستيل ، بمخاكة الآثار الكلاسيكية القديمة من أغريقية ولاتينية في حسن الصياغة وإحكام الأسلوب ؛ ثم أعقبت هذه مدرسة رومانسية أخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلي وكيتس ، فنبتت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لحياتها اللسان ؛ وفي أواسط ذلك القرن قامت المدرسة الواقعية تحم ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تينسون ثم هاردي .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة في عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والتمامرات في الكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الديني الذي كان زعماءه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسيكية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال التهافت على حياة المدن الزردى بظواهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً في عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة : من زعة إلى التحرر من قيود المجتمع واغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدتها القرن الماضي . وقد تتابعت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح ما فيها وتدارك ما أهملته هكذا تطور الأدب الإنجليزي مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربي : فلفه الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الاسلام الفحولة ، فلفه الصدر الصامى الجزلة ، ثم جاءت بسد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والاناقة ، والأسلوب المرئيل المرسل تلاء الأسلوب الفني للتعمل المرصع الذي تزايد تعمّله وترصيمه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض الأدب وشملت من أسباب الحضارة ما لم تشمل قبل : من شؤون الامارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والأخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالأدب العربي قد تطور تطوراً عاماً اتجه إلى ترقيق العبارة وتوسيع أغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو محضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها في مجرى الأدب الإنجليزي ؛ ومعظم أغراض الأدب العربي وصفاته توورتت جيلاً عن جيل : فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها في الشعر ظلت أبواباً ممتازة معددة يتبارى الشعراء في تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلاً منها ؛ وكتب الأخبار الأدبية والتاريخية المختلطة ظلت على

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الأدباء من ينكره ويثبت الفضل للتأخرين ، وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة اللغائية ما نرى في الأدب العربي دون غيره من الآداب من ظواهر بترأه ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار في شيء : كالنزل الاستهلال ، وذكر الأبل والحناء والبيد ، وممارسة القصائد المشهورة بماتلاتها في الغرض والوزن والقافية

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة في الأدب : هما اللدح والهجاء التكلفان طلباً لصلوات المدوح أو لهيات خصم المهجو ، فقد كان الشاعر مثلاً يمدح بقائد الخليفة أو وزيره مادام مرضياً عنه ، فإن نكس تقرب الشاعر إلى الخليفة بذمه ؛ وقد كان أكثر اللدح والهجاء من هذا النوع التكلف المستمخج ، وما لم يُصدره الشاعر عن شعور حقيق فسيبيله فيه أن يحاكي ويأخذ بمن تقدم تقصاً وزيادة وتخريجاً وتوليداً ، لذلك ظلت معاني اللدح والهجاء وتشبيهاتها في مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين ، وأثر هذا جلي في جود الأدب وتقيده بالقديم بدل اتجاهه إلى منح جديدة

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربي ، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب ، فالأدب ككل كأنه يحمّد ويتضائل إذا لم يتصل بشيء ، فتجواب الاحساسات والأفكار ، وقد كان من أكبر عوامل رقي الأدب الإنجليزي وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه إلى الآداب الكلاسيكية ، أما الأدب العربي فلم يكن له مرجع عدا ماضيه ، فظل دائماً ينظر إلى الخلف بدل أن ينظر إلى الامام ، ولو استفاد من الأدب الأجنبي مثلاً لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت إلى ضعف رغبة التجديد واستفحال زعة التقليد في الأدب العربي ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد الحاناً بينها حتى بلغ ما يمكن أن يُلغى مثله من الرق ، ثم انحدر في طور تدهوره الطويل ، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلب زعة التقليد فيه على زعة التطور ما
فرضى أبو العرد

وتيرة واحدة من أول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض في طريقة البحث والسرود وتهذيب الأبواب والفصول ولا غرو فقد كانت تحيط بالأدب العربي ظروف كلها تدعو إلى المحافظة والتقليد : فالجمع العربي ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكديطراً عليه جديد من الأفكار والأنظمة بعد تشبُّهه بمحضارة الأقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الأحداث الاجتماعية والسياسية ما ترك سداها في الأدب : فقد كانت القصة من أولها إلى آخرها على وتيرة واحدة : أسرى وأمراء يتوارثون الحكم ويتجاوزونه ، وأمم مكفوفة عن شؤون الحكم إلا أن تنور تأثرها في الفينة بعد الفينة فتقع وتعود الأمور إلى وتيرتها ، وما من زعة جديدة أو اتجاه جديد يحول عنان الأمور إلى غير ما هي سائرة فيه

والأدباء أنفسهم كانوا منزهين بأدابهم عن مجتمعهم فلما يعبرون عن أمانيه أو يحاولون قيادته ، وكانوا أقرب مكاناً إلى الأمراء منهم إلى صف الشعب ، لأنهم كانوا يعتمدون على الأولين في معاشهم
ثم إن قيام الإمبراطورية الإسلامية أدى من بادي الأمر إلى تقيجين كانت كتاباتها ذات أثر بالغ في الأدب العربي ، وكانت عاملياً محافظة وتقليدية فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجياً ، ودخول الأعاجم في اللسان العربي

فان فساد اللغة تدريجياً جعل الأدباء يحتنون دائماً حذو المتقدمين من العرب الألقاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حسب الشاعر المتأخر أن يجارى المتقدمين في جزالة القول وإحكام النسخ ليكون قد بلغ مبالغ الشعرية ، ولا يكاد يحظر له أن يبرز على أولئك المتقدمين ويتكبر ما لم يعرفوا ، وهو وإن لم يُرد إلا محاكاة أسلوهم إلا أن ذلك مؤديه حتماً إلى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة

والأعاجم الذين دخلوا في اللسان العربي انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا إلى محاكاةهم تقوياً لمرئيتهم وطلباً لأسرار اللغة وقواعدها ؛ ولا يخفى أن كثيراً من أقطاب الأدب المتأخرين كانوا من هؤلاء الأعاجم المستعربين ، فكان تأثيرهم في الأدب تأثير محافظة وتقليد ونظر إلى القديم